مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches And Scientific Activities
العدد السابع
March 2023 مارس

طلب الخفة في الدرس الصوتي عند علماء التجويد

الدكتور: المهدي محمد أحمد خليفة
أستاذ مساعد كلية الآداب والتربية صبراتة
هاتف 0915276548
إيميل: almahdi.aldabbashi@gmail.com

الملخص:

ارتبطت علوم العربية منذ النشأة الأولى بالقرآن الكريم بيانا وإعرابا وتفسيرا، ولم يكن هناك فصل بين علوم العربية، فإننا نجد النحاة القراء، بل من أئمة القراءات، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب اللغة التي كتبها القدماء إلا وتجد إشارات من كل علم من علوم العربية، وعلم التجويد لم يكن بدعا من هذه العلوم، بل إن بناءه الأساس بناء صوتي، فهو التطبيق الصوتي لأحكام القراءة، ومبدأ طلب الخفة كان حاضرا عند علماء التجويد، ويأتي بأنماط متنوعة كالحذف والإبدال، وتسكين المتحرك إذا توالت الحركات، وتحريك الساكن إذا التقى ساكنان، كل ذلك كان لغاية وهي الاقتصاد في الجهد العضلي، وتحقيق التوافق الحركي، وصولا للانسجام الصوتي؛ لذا فالقرآن ليس فيه كلمات خفيفة وأخرى ثقيلة، وإنما كلمات لينة وكلمات شديدة يناسب كل منهما السياق القرآني خدمة للمعنى، فالقرآن خفيف في السمع، خفيف في القراءة، وجهود علماء التجويد انصبت في المحافظة على الصيغة الصوتية التي نزل بها القرآن الكريم.

Summary:

The sciences of Arabic have been associated since early childhood with the Holy Qur'an, with clarification, parsing and interpretation, and there was no separation between the sciences of Arabic. And the science of intonation was not an innovation from these sciences, rather its basic structure was a sound structure, as it is the vocal application of the rulings of reading, and the principle of asking for lightness was present among the scholars of intonation, and it comes in various styles such as deletion and substitution, and the pacing of the moving if the movements are successive, and moving the consonant if two residents meet, All of this was for the purpose of saving muscular effort, achieving kinetic harmony, and achieving vocal harmony. Therefore, the Qur'an does not contain light or heavy words, but rather soft words and strong words, each of which fits the Qur'anic context in order to serve the meaning.

Copyright for the journal © حقوق الطبع محفوظة للمجلة

مقدمة:

إن ارتباط علوم العربية بالقرآن ارتباط وثيق الصلة، بل إن علوم العربية تأسست بداية لصون هذا اللسان العربي من اللحن خدمة لكتاب الله، هذا الكتاب الذي شاء الله أن يكون سببا في حفظ العربية، والعرب في استعمال هذه اللغة كانوا يعمدون إلى الخفة في كلامهم، هذه الخفة التي لا يخلو درس من دروس اللغة إلا وكان له نصيب منها، من هذه الدروس الدرس الصوتي الذي هو تأسيس الكلام.

هذا البحث جاء محاولة للإجابة عن تساؤل مفاده إلى أي مدى تحقق طلب الخفة في الدرس الصوتي؟ وسوف يرتكز على جهود علماء التجويد في تحقيق مبدأ الخفة في الدرس الصوتي، هذه الخفة التي تعين قارئ القرآن على تحقيق الانسجام الصوتي، وتبعده عن تعقيدات النطق التي قد تنشأ بسبب مخرج الصوت _قربا أو بعدا_ أو بسبب صفته التي اتصف بها.

فصفة الشدة مثلا في الأصوات العربية يحدث فيها حبس للصوت في موضع من مواضع النطق بالحرف، ثم يسمح له فجأة بالخروج محدثا انفجارا، غير أن هذا الانفجار لا يجري معه النفس؛ فيحدث نوعا من الضيق، فكان لا بد من التخفيف من هذا الضيق.

والبحث سلك مسلك المنهج الوصفي الاستقرائي، وذلك بعرض ما تناوله من مصطلحات ومفاهيم ووصفها من خلال كتب علماء اللغة، وعلماء التجويد والقراءات، واستقراء المواضع التي عرض فيها علماء التجويد الظواهر الصوتية، وتوظيفهم لها تحقيقا للتوافق الحركي، وطلبا للخفة، بغية الوصول إلى الانسجام الصوتي.

ويمكن لنا أن ندرس مظاهر الخفة في الدرس الصوتي ضمن محورين رئيسين هما: الخفة في الصوامت، والخفة في الصوائت، غير أننا قبل أن نشرع في هذين المحورين لا بد لنا من تحديد بعض المفاهيم:

مفهوم الخفة:

يذكر ابن فارس أن الخفة شيء يخالف الثقل[1]، وخف الشيء يخف خفة صار خفيفا[2]، فمفهوم الخفة في اللغة ضد الثقل، يقول ابن سيده: "واسْتَخَفَّه: طلب خِفَّتَه ... واستَخَفَّه: رَآهُ خَفِيفا، وَمِنْه قَول بعض النَّحْوِيين: استخف الْهمزَة الأولى فخففها، أَي إِنَّهَا لم تثقل عَلَيْهِ فخففها لذَلِك"[3].

والخفة هي: "قوة طبيعية يتحرك بها الجسم عن الوسط بالطبع"[4]، والخفة "ضدّ الثّقل وهما من الكيفيات الملموسة"[5]، ونجد سيبويه يعقد بابا أسماه: باب ما يسكن استخفافا، وهو في الأصل عندهم متحرك[6]، وابن السرج يسميه باب ما يسكن استخفافا في الاسم والفعل[7]، ومنه التَّخْفِيف وهو عِنْد الْقُرَّاء والصرفيين يكون "فِي النُّطْق بِالْهَمْزَةِ وَذَلِكَ بسقوطها أَو بإبدالها حرف مد أَو يَاء أَو واواً أَو بالنطق بهَا بَين بَين؛ أَي بَين مخرج الْهمزَة وَبَين مخرج الْحَرْف الَّذِي من حركتها"[8]، والخفة في الأداء الصوتي هي من باب الاقتصاد اللغوي، اقتصاد في الجهد وفي حركة اللسان، ومفهوم الخفة "لا يعني وجود مفردات ثقيلة، بل هناك شدة ولين، وهذا يتفق مع الموقف الذي تتحدث عنه المفردات، وإن إجماع القدامى في هذا المضمار لا يتنافى مع فهمهم للتشكيل الصوتي"[9].

مفهوم الدرس:

الدرس من الفعل (درس)، يقول الأنباري: "وقولهم: قد درس الرجلُ القرآن قال أبو بكر: معناه: قد راضه، وذلّل لسانه به، والدرس، معناه في كلامهم: الرياضة والتذليل. يقال: طريق مدروس: إذا كثر مشي الناس فيه، حتى ذلّلوه وأثّروا فيه"[10]، فمن معانيه الرياضة والتذليل؛ أي دوام الممارسة للفعل، والدراسة تكرار القراءة للشيء المقروء "يقال: درس القرآن: أي قَرأَه مرة بعد مرة"[11]، ومنه التدارس وهو "أن يقرأ بعض القوم مع بعض شيئًا أو يعلم بعضهم بعضًا ويبحثون في معناه"[12]، وهذا المعنى يقترب من المعنى الذي يدل عليه مصطلح الدرس، ويشير المعجم الاشتقاقي إلى معنى أعمق في الدلالة، فقولك درس فلان الكتاب، أي: "استخرج معانيه، وأذهب صعوبة غموضه والجهل به"[13].

مفهوم الصوت:

يقول ابن فارس: "الصاد والواو والتاء أصل صحيح، وهو الصوت، وهو جنس لكل ما وقر في أذن السامع"[14]، نلاحظ أن ابن فارس لم يشر إلى مصدر الصوت، وإنما أشار إلى وصول الصوت إلى المتلقي، في إشارة إلى أن الصوت لا بد أن يصل إلى متلقٍ وإلا فلا أثر له، فالصوت هو "التموج الناشئ من القرع أو القلع إذا وصل إلى الهواء المجاور للصماخ حدث في هذا الهواء بسبب تموجه الصوت"[15].

فالصوت "عبارة عن تموج الهواء بحركة شديدة يحصل من قرع بعنف أو قلع بشدة"[16]، فالصوت هو الذي تسمعه الأذن بكيفية معينة.

والصوت الذي يعنينا هو الصوت الإنساني، الصوت اللغوي الذي ينتجه الإنسان ليعبر به عن مشاعره وأفكاره وآرائه، وحاجاته، أي الذي يتواصل به مع الآخرين؛ أي الصوت اللغوي.

وإذا كان الدرس من المدارسة وإمعان النظر والفكر؛ بغية الوصول إلى فهم لا غموض فيه ولا إبهام، والصوت هو ما يحدثه الإنسان بغية التواصل مع الآخرين؛ فإن الدرس الصوتي يعني النظر في هذا النتاج الإنساني بغية الوصول إلى إيضاحه وإزالة إبهامه وإلى إدراكٍ كاملٍ لكل ما يتعلق به من حيث الإنتاج ومن حيث الاستقبال، وتحليله تحليلا يعين على إضاءة كل جوانبه.

مفهوم التجويد:

التجويد مصدر للفعل (جوَّد)، وهو من "التسمح بالشيء، وكثرة العطاء"[17]، أي حسن الشيء، وجود الأمر أتى بالجيد منه[18]، فهو يكون في الكلام ويكون في كل فعل، و"جود القراءة: أجادها وقرأها بوضوح، وجود القرآن رتله ترتيلا"[19]، والذي يعنينا في هذا المقام هو التجويد المتعلق بكتاب الله تعالى القرآن الكريم، الذي هو "تلاوة القرآن بإعطاء كل حرف حقه من مخرجه ... وإعطاء كل حرف مستحقه من الصفات"[20]، فعلم التجويد علم أداء؛ بمعنى كيف نقرأ القرآن قراءة صحيحة لا لحن فيها، فالقرآن الكريم نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بصيغة صوتية، قال تعالى: **{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}** [القيامة: 16 – 19]، يقول ابن كثير في تفسير هذه الآيات: "هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه"[21]، فعلم التجويد عمله هو المحافظة على هذه الصيغة الصوتية التي نزل بها القرآن الكريم، أو هو التطبيق الصوتي لأحكام القراءة.

ويختلف علم التجويد عن علم القراءات، فعلم التجويد علم دراية، وعلم القراءات علم رواية، يقول المرعشي: "اعلم أن علم القراءات يخالف علم التجويد، لأن المقصود من الأول، معرفة اختلاف الأئمة في نفس الحروف أو في صفاتها، والمقصود من الثاني معرفة حقائق صفات

الحروف مع قطع النظر عن الخلاف فيها"[22]، فهما يلتقيان حول الحرف وصفاته، لكنهما يختلف في الكيفية التي ينظران بها إليه، فالتجويد ينظر إلى ماهيته، فهو بحث متعلق بذات الحرف وصفات الحرف، والقراءات بحث في متعلقات الحرف وصفاته من حيث اختلاف القراء حوله.

بعد هذا العرض الذي أوضحنا فيه المفاهيم المرتبطة بعنوان هذا البحث الذي يهتم بطلب الخفة في الدرس الصوتي، والكيفية التي وظف بها علماء التجويد هذه الخفة في قراءة القرآن الكريم، يمكن لنا أن نلاحظ مظاهر هذه الخفة في المحاور الآتية:

أولاً_ طلب الخفة في الصوامت:

أصوات العربية ليست على قدر واحد من حيث الخفة والثقل، أو الرخاوة والشدة، فهي "تنقسم على ضربين: ضرب خفيف، وضرب ثقيل، وتختلف أحوال الخفيف منهما، فيكون بعضه أخف من بعض، وتختلف أحوال الثقيل منهما، فيكون بعضه أثقل من بعض"[23]، وتُسمى عند بعضهم بالحروف الجوامد، أو الجامدة، وتقابلها أحرف المد، أو أحرف اللين[24].

وطلب الخفة في القراءات القرآنية في الصوامت قد يكون بإبدال حرف مكان حرف، وقد يكون بالإدغام، وقد يكون بالحذف.

إبدال حرف مكان حرف:

من أمثلة إبدال حرف مكان حرف، قوله تعالى: **{وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** [البقرة: 245]، فإن (سين) (يبسط) أبدلت (صادا) في بعض القراءات، ومنها قراءة ورش فقد "قرأ ورش (يبصط) بالصاد فقط أينما وردت في القرآن الكريم، وقرأ حفص بالسين هنا وفي الأعراف، وهما لغتان"[25]، ويذكر أن المعتمد في قراءة ورش أنه يقرأ هذه الكلمة (يبسط) حيثما وردت في القرآن الكريم بالصاد بدلا من السين، وعلة ذلك أن "من قرأ بالصاد وجها واحداً فلكراهية التصعد بالطاء بعد التسفل بالسين، فقلبوها صادا إرادة الخفة والتجانس"[26]، فعلة الإبدال عند ورش أن حرف السين حرف مستفل، والطاء بعده حرف مستعلٍ، فانتقال اللسان من الاستفال إلى الاستعلاء فيه نوع من الثقل في حركة اللسان؛ فجاء بحرف يقارب حرف الطاء في الاستعلاء وهو الصاد؛ ليصعد اللسان صعدة واحدة، فتخف حركته، ويكون اقتصادا في الجهد والحركة.

ومنه أيضا قوله تعالى: **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}** [الفاتحة: 6]، فإن حرف الصاد في كلمة (الصراط) أبدلت زايا (الزراط) في بعض القراءات، ويعلل لذلك أن "من قرأ بالزاي أبدلت منها حرفا مجهورا حتى يشبه الطاء في الجهر، ورمت الخفة"[27]، وهناك من يرى أن الأصل هو السين،

فهي (سراط)، فأبدلت السين صادا، يقول الزمخشري: "والصراط من قلب السين صاداً لأجل الطاء، كقوله: مصيطر، في مسيطر، وقد تشم الصاد صوت الزاي، وقرئ بهنّ جميعا، وفصاحهنّ إخلاص الصاد"[28]، ويذكر ابن عاشور علة هذا الإبدال بقوله: "نَطَقُوهُ بِالصَّادِ مُبْدَلَةً عَنِ السِّينِ لِقَصْدِ التَّخْفِيفِ فِي الِانْتِقَالِ مِنَ السِّينِ إِلَى الرَّاءِ ثُمَّ إِلَى الطَّاءِ ... إِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي كُلِّ سِينٍ بَعْدَهَا غَيْنٌ أَوْ خَاءٌ أَوْ قَافٌ أَوْ طَاءٌ وَإِنَّمَا قَلَبُوهَا هُنَا صَادًا لِتُطَابِقَ الطَّاءَ فِي الْإِطْبَاقِ وَالِاسْتِعْلَاءِ وَالتَّفَخُّمِ مَعَ الرَّاءِ اسْتِثْقَالًا لِلِانْتِقَالِ مِنْ سُفْلٍ إِلَى عُلُوٍّ"[29]، فالعلة هي طلب الخفة، والعامل في ذلك هو الصفة أو المخرج، أو هما معنا؛ وذلك بالبحث عن الكيفية التي يتحرك بها اللسان تحركا لا يكون فيه ثقل في انتقاله بين صفة وضدها، أو مخرج ومخرج، فالحروف "إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت؛ لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون حروف الفم ودون حروف الذلاقة كلفته جرسا واحدا، وحركات مختلفة"[30].

إدغام حرف في حرف:

الإدغام كما يعرفه الجرجاني: "إسكان الحرف الأول وإدراجه في الثاني"[31]، والإدغام عند أهل القراءات والتجويد ضرب من ضروب الخفة، حتى قالوا: "اعلم أن الإدغام إنما هو لمن انزرب لسانه، وحقق التلاوة، ودقق ورق في معانيه، فالمقصود منه الخفة"[32]، وتحدث الخفة في كون اللسان يتحرك حركة واحدة، "فالإدغام أيسر وأقرب إلى الخفة؛ لأنه قد تغلب على ثقل الإظهار بحذف الأمر الزائد بين الحرف الساكن والحرف المتحرك"[33]، وأمثلته في القرآن كثيرة، وسنقتصر على بعض النماذج.

منها قوله تعالى: **{يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ}** [ق: 44]، يقول ابن عاشور: "قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب تشقق بفتح التاء وتشديد الشين، وأصله تتشقق بتاءين فأدغمت التاء الثانية في الشين بعد قلبها شينا لتقارب مخرجيها"[34]، فالحجة تقارب المخرج، فالتاء مخرجها لثوي أسناني، والشين مخرجها غاري، وصفة التاء الهمس، وصفة الشين الجهر؛ فأبدلت التاء الثانية شينا، وأدغمت في أختها ليتحرك اللسان حركة واحدة في المخرج والصفة؛ لتحقيق التوافق الحركي للسان، وإذا نظرنا إلى مخرجيهما عند القدماء نجد أن الشين مخرجها من وسط اللسان، والتاء من طرف اللسان؛ فتقارب المخرج، فكان الإدغام، "وتقدير تشقّق:

تتشقق، فأدغم التاء في الشين، لأنّ الصوت بالشين يلحق بمخارج هذه الحروف التي من طرف اللسان وأصول الثنايا، فأدغمن فيها"[35].

ومنه قوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ}** [يوسف: 45]، يقول أبو حيان: "وأصله: وَاذْتَكَرَ أُبْدِلَتِ التَّاءُ دَالًا وَأُدْغِمَتِ الذَّالُ فِيهَا فَصَارَ ادَّكَرَ، وَهِيَ قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ: وَاذَّكَرَ بِإِبْدَالِ التَّاءِ ذَالًا، وَإِدْغَامُ الذَّالِ فِيهَا"[36]، فالذال مجهورة، والتاء مهموسة، تأثرت التاء بالذال فصارت دالا، وأبدلت الذال دالا، وأدغمتا معا، أو أنها أبدلت ذالا وأدغمتا معا، على قراءة (واذكر)، وعلة ذلك النزوع إلى التوافق الحركي، والاقتصاد في الجهد؛ طلبا للخفة.

حذف الحرف:

الحذف ضرب من ضروب طلب الخفة في الكلام، يذكر صاحب مختصر التبيين أنه بقراءة لكتاب سيبويه "نجد أنه نصَّ في مواضع كثيرة على ضرورة الحذف، ويبين السبب الذي ألجأ العرب إليه من طلب الخفة على اللسان"[37]، وإن كان الإدغام في الأصوات يؤتى بها طلبا للخفة، فإن الحذف أخف من الإدغام، فإن وقع اختيار بين الحذف والإدغام اختاروا الحذف لأنه أخف، وهم في هذا يطلبون الخفة[38]، والحذف يكون "حين تتجاوز أصوات متماثلة أو متقاربة تميل بعض اللهجات إلى حذف أحدها طلبا للتخفيف"[39].

معلوم أن الكلام يمر بمراحل متعاقبة، تبدأ بالفكرة أو المعنى المراد، ثم اختيار القالب اللغوي المناسب لهذه الفكرة أو هذا المعنى، ثم تحويل هذه القوالب إلى أصوات لغوية؛ ليصل إلى المتلقي الذي يحصل عنده المعنى، فليس كل حذف في الأصوات يُراد به التخفيف المحض الذي لا علاقة له بالمعنى، بل قد نجد له تعلقا بالمعنى؛ يدلنا على ذلك أننا نجد في القرآن الكريم حذفا لحرف من الكلمة في موضع من الآيات، ولا نجده في مواضع آخر تتطابق الآيات من حيث ألفاظها، يقودنا هذا إلى النظر في سياق الآتين، والمعنى العام للآيات.

ونشير هنا إلى بعض الآيات التي ورد فيها حذف (النون) من الفعل (كان) المجزوم، وإبقائها في آية أخرى والتركيب النحوي ذاته، من ذلك:

قوله تعالى: **{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}** [النحل: 127]، وقوله تعالى: **{وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}** [النمل: 70]،

ففي سورة النحل حُذفت (النون) من الفعل (تكن)، غير أنه في سورة النمل لم تُحذف (النون) من الفعل (تكن)، والسياق النحوي واحد، ولا مبرر نحوي يسوغ حذفها، وقد أشار النحاة إلى أن علة الحذف كثرة الاستعمال[40]، لكن لو كان كذلك لكان مطردا، فلا يكون في سياق دون آخر، ويذكر الزركشي أن الفارق هنا هو السياق المعنوي لا السياق النحوي، فيقول: "ويلحق بهذا القسم حذف النون الذي هو لام فعل، فيحذف تنبيها على صغر مبدأ الشيء وحقارته وأن منه ينشأ ويزيد إلى ما لا يحيط بعلمه غير الله مثل {ألم يك نطفة} حذفت النون تنبيها على مهانة مبتدأ الإنسان وصغر قدره بحسب ما يدرك هو من نفسه"[41].

ويذكر السامرائي أن سياق آية النحل سياق تخفيف وتهوين من حالة صعبة مرَّ بها النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، فناسبه حذف النون من الفعل للخفة، أما سياق آية النحل فسياق محاجة في الميعاد، فلم يقتضِ هذه الخفة في اللفظ[42].

ومثله قوله تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}** [السجدة: 23]، وقوله تعالى: **{فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ}** [هود: 109].

ثانيا_ طلب الخفة في الصوائت:

الصوائت هي خلاف الصوامت، ويشير ابن سيناء إلى أن الواو والياء تكون صامتة في حال وتكون صائتة في حال أخرى، ويعبر عن الصائت بمصطلح المصوت، فهي عنده واو صامتة، وواو مصوتة وأختها الضمة، وياء صامتة وياء مصوتة وأختها الكسرة، والألف المصوتة وأختها الفتحة، ويرى أن الفرق بين الأصوات المصوتة والحركات هو زمن النطق بهذا الصوت أو ذاك[43]، فالصوائت، أو المصوتات صوائت طويلة بطول زمن النطق، وهي: (الواو والياء والألف) وصوائت قصيرة لقصر زمن النطق (الضمة والكسرة والألف)، فالحركات أبعاض حروف كما يرى ابن جني "اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة، والكسرة، والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو"[44]، ويعلل أبو عمرو الداني لتسميتها بقوله: "والممدودة ثلاثة أحرف: الياء والواو والألف، سميت ممدودةً لأن الصوت يمتد بها بعد إخراجها من موضعها...

وتسمى أيضاً حروف اللين لضعفها وخفائها وأن الحركات مأخوذة منها، فالفتحة من الألف، والكسرة من الياء، والضمة من الواو"[45].

هذه الصوائت أو الذوائب كما تسمى في بعض كتب التجويد والقراءات يعتريها التغيير؛ وذلك طلبا للخفة "فحركات الإعراب الضمة والكسرة خاصة قد يُضحي بها العربي أحيانا؛ لأجل الخفة والتوافق الحركي"[46].

من ذلك أنهم يغيرون الصائت القصير ليناسب الصائت الموالي له، كما في قوله تعالى: **{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ}** [الأعراف: 148]، فكلمة (حليهم) قرئت "بضم الحاء وكسرها ... والحجة لمن كسر أنه استثقل الخروج من ضم إلى كسر، فكسر الحاء ليقرب بها بعض اللفظ من بعض طلبا للتخفيف"[47]، فالكسرة في الحاء تناسب الكسرة في اللام، وبهذا تكون حركة اللسان على مستوى واحد، مما يوفر الجهد الحركي، ويخف على اللسان.

وقد يكون طلب الخفة في الصائت القصير بالإسكان، كيلا تتوالى الصوائت، ومن ذلك إسكان الميم الأولى في كلمة (أنلزمكموها)، في قوله تعالى: **{أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ}** [هود: 28]، ففي بعض القراءات قرئت بإسكان الميم **(أَنُلْزِمْكُمُوهَا)** الأولى تخفيفا[48]، وفرارا من تولي الحركات[49].

وقد يكون طلب الخفة في تحريك الحرف الساكن، وأمثلة هذا في القرآن كثيرة، يقول الأزهري: "قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي: (فمن اضطر) (أن اقتلوا) (أو اخرجوا)، (ولقد استهزئ)، (وقالت اخرج)، (أو انقص) وما نحا نحو هذا بالضم ... قال أبو منصور: هما لغتان، فمن كسر فلاجتماع الساكنين، ومن ضم فلأن ألف الوصل كان حقها الضم لو ابتدئ بها، فلما سقطت في الوصل نقلت ضمتها إلى الحرف الذي قبلها"[50].

وتجدر بنا الإشارة إلى بعض الظواهر الصوتية عند علماء التجويد كان الهدف منها، النزوع إلى التوافق الحركي، والاقتصاد في الجهد؛ طلبا للخفة في قراءة القرآن الكريم؛ كي يحقق الانسجام التام بين أصواته ومقاطعه، من ذلك:

أن أحرف الشدة في اللغة العربية هي: [ق، ط، ب، ج، د، أ، ك، ت]، والشديد: "هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه وهو الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطاء، والتاء، والدال، والباء"[51]،

وفي حديثه حروف القلقلة يصفها بقوله: إن من الحروف حروفا مشربة ضغطت من موضعها، فإذا وقفت خرج معها من الفم صويت، ونبا اللسان من موضعه وهي حروف القلقلة"[52]، ويعلل ابن جني لهذه القلقلة بقوله: "لأنك لا تستطيع الوقوف عليها إلا بصوت، وذلك لشدة الحفز والضغط"[53]، من هنا نفهم أن القلقلة ما هي إلا تنفيس للقارئ نتيجة لما يحدث من تصعد وضغط لشدة الصوت، فتأتي القلقلة بهذا الاهتزاز الذي يحدث معها، فيحدث التنفيس، الذي هو تخفيف.

لكن الشدة في الحرف ليست في حروف القلقلة فقط، وإنما هناك حرف (الكاف) وحرف (التاء) غير أننا نجد علماء التجويد قلقلوا من أحرف الشدة: (قطب جد)، ولم يقلقلوا والكاف والتاء، وعلة ذلك أن حرفي الكاف والتاء يبدأنا شديدين ثم يتحولان مهموسين، وعند النطق بهما ساكنين نسمع صوتا خفيفا، وهو الهمس، الذي يقلل من شدة هذين الحرفين، ويكون الهمس بديلا عن صفة القلقلة، وعلة ذلك طلب الخفة، وإحداث التوافق الحركي، والانسجام الصوتي.

الخاتمة:

نخلص إلى القول بأن:

1- علم التجويد جاء بناؤه لأجل تحقيق الانسجام الصوتي، الذي يحقق التوافق الحركي بين الأصوات والمقاطع الصوتية؛ طلبا للخفة، وظفَّ علماء التجويد علم الأصوات اللغوية في تحقيق هذه الخفة.

2- أصوات القرآن وألفاظه ليس فيها ثقل، وإنما في بعضها شدة، وفي بعضها لين، والموقف والسياق يحدد أيهما أقوى في حمل المعنى؛ وإنك لتدرك ذلك حين تقرأ قوله تعالى: **{وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا}** [النساء: 72]، فالآية في الحديث عن الإبطاء الحاصل من المنافقين، فجاءت الألفاظ في نطقها تشعرك بهذا البطء، (وإن منكم لمن ليبطئن)، فإذا أردت أن تقرأها بصورة صحيحة لا بد أن تقرأها بتؤدة، هذه التؤدة تناسب المعنى الذي جاءت به الآيات، فالقرآن ليس فيه كلمات خفيفة وأخرى ثقيلة، وإنما كلمات لينة وكلمات شديدة يناسب كل منهما السياق القرآني خدمة للمعنى، فالقرآن خفيف في السمع، خفيف في القراءة.

3- جهود علماء التجويد انصبت في المحافظة على الصيغة الصوتية التي نزل بها القرآن الكريم.

هذا والله أعلم

الهوامش والمصادر والمراجع:

[1] – معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، سنة: 1399هـ – 1979م، مادة (خفف): 154/2.

[2] – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ – 1987م، مادة (خفف): 4/ 1353.

[3] – المحكم والمحيط الأعظم، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ – 2000 م، مادة (خفف): 522/4.

[4] – التوقيف على مهمات التعاريف، المؤلف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، الناشر: عالم الكتب 38 عبد الخالق ثروت–القاهرة، الطبعة: الأولى، 1410هـ–1990م، ص: 157.

[5] – موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، المؤلف: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى – 1996م: 755/1.

[6] – الكتاب، المؤلف: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، 1408 هـ – 1988م: 4/ 335.

[7] – الأصول في النحو، المؤلف: أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج، المحقق: عبد الحسين الفتلي، الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان – بيروت: 158/3.

[8] – المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة، مادة (خفف): 1/ 247.

[9] – جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف، الناشر: دار المكتبى – دمشق، الطبعة: الثانية، 1419 هـ – 1999م، ص: 237.

[10] – الزاهر في معاني كلمات الناس، المؤلف: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري، المحقق: د. حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1412 هـ –1992، مادة (درس): 129/2.

[11] – شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، المؤلف: نشوان بن سعيد الحميري اليمني، المحقق: د حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الأرياني – د يوسف محمد عبد الله، الناشر: دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، دار الفكر (دمشق – سورية)، الطبعة: الأولى، 1420 هـ – 1999 م، مادة (درس): 2079/4.

[12] – مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، المؤلف: جمال الدين، محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي الكجراتي، الناشر: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة: الثالثة، 1387 هـ – 1967م، مادة (درس): 165/2.

[13] – المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصَّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها)، المؤلف: د. محمد حسن حسن جبل، الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة: الأولى، 2010 م، مادة (درس): 648/2.

[14] – مقاييس اللغة، مادة (صوت): 318/3.

[15] – موسوعة مصطلحات ابن خلدون والشريف علي محمد الجرجاني، المؤلف: رفيق العجم، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى/ 2004 م: 385/2.

[16] – موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، المؤلف: جيرار جهامي، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى/ 1998م: ص: 365.

[17] – مقاييس اللغة، مادة (جود): 493/1.

[18] – شمس العلوم: 1224/2.

[19] – تكملة المعاجم العربية، المؤلف: رينهارت بيتر آن دُوزِي، نقله إلى العربية وعلق عليه: جـ 1 – 8: محمَّد سَليم النعَيمي، جـ 9، 10: جمال الخياط، الناشر: وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، الطبعة: الأولى، من 1979 – 2000 م: 330/2.

[20] – التعريفات الفقهية، المؤلف: محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، الناشر: دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان 1407هـ – 1986م)، الطبعة: الأولى، 1424هـ – 2003م: ص: 52.

[21] – تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ – 1999 م: 8/ 278.

[22] – ترتيب العلوم، محمد بن أبي بكر المرعشي الشهير بساجقلي، تحقيق: محمد بن إسماعيل السيد أحمد، الناشر: دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1408 هـ – 1988م، ص: 138.

[23] – سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت–لبنان، الطبعة: الأولي 1421هـ– 2000م: 427/2.

[24] – التحديد في الإتقان والتجويد، لأبي عمرو الداني، تحقيق: الدكتور غانم قدوري حمد، الناشر: مكتبة دار الأنبار – بغداد / ساعدت جامعة بغداد على طبعه، الطبعة: الأولى 1407 هـ – 1988م، ص: 134.

[25] – القراءات روايتا ورش وحفص دراسة تحليلية مقارنة، حليمة سال، قدم له: د/ عمر الكبيسي – الشيخ/ بصيري سال، الناشر: دار الواضح – الإمارات، الطبعة: الأولى، 1435 هـ – 2014 م، ص: 267.

[26] – السابق، ص: 267.

[27] – الحجة للقراء السبعة، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي، تحقيق: بدر الدين قهوجي – بشير جويجابي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح – أحمد يوسف الدقاق، الناشر: دار المأمون للتراث – دمشق / بيروت، الطبعة: الثانية، 1413 هـ – 1993م: 50/1.

[28] – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1407 هـ: 1/ 15.

[29] – التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ: 1/ 190.

[30] – جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، 1987م: 1/ 46.

[31] – كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ –1983م، ص: 14.

[32] – الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها، يوسف بن علي بن جبارة بن محمد بن عقيل بن سواده أبو القاسم الهُذَلي اليشكري المغربي، تحقيق: جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، الناشر: مؤسسة سما للتوزيع والنشر، الطبعة: الأولى، 1428 هـ – 2007 م، ص: 347.

[33] – الميزان في أحكام تجويد القرآن، فريال زكريا العبد، الناشر: دار الإيمان – القاهرة، ص: 137.

[34] – التحرير والتنوير: 332/26–333، وينظر، القراءات وأثرها في علوم العربية، محمد محمد محمد سالم محيسن، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، الطبعة: الأولى، 1404 هـ – 1984م : 37/2.

[35] – الحجة للقراء السبع: 341/5.

[36] – البحر المحيط في التفسير: 6/ 284.

[37] – مختصر التبيين لهجاء التنزيل، أبو داود، سليمان بن نجاح بن أبي القاسم الأموي بالولاء، الأندلسي، الناشر: مجمع الملك فهد – المدينة المنورة، عام النشر: 1423 هـ – 2002 م: 1/ 235.

[38] – ينظر، الحجة للقراء السبع: 5/ 341.

[39] – إعراب القرآن، لأبي جعفر النَّحَّاس، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ: 1/ 11.

[40] – ينظر، الأصول في النحو، المؤلف: أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان – بيروت: 3/ 343.

[41] – البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، 1376 هـ – 1957 م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه: 1/ 407–408.

[42] – ينظر، معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن، الطبعة: الأولى، 1420 هـ – 2000 م: 1/ 232–233.

[43] – ينظر، رسالة أسباب حدوث الحروف، لأبي علي الحسين بن عبد الله ابن سيناء، تحقيق: محمد حسان الطيان، ويحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ص: 83–85.

[44] – سر صناعة الإعراب: 1/ 33.

[45] – التحديد في الإتقان والتجويد، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني، تحقيق: الدكتور غانم قدوري حمد، الناشر: مكتبة دار الأنبار – بغداد الطبعة: الأولى 1407 هـ – 1988 م، ص: 109.

[46] – الكنز في القراءات العشر، أبو محمد، عبد الله بن عبد المؤمن بن الوجيه بن عبد الله بن على ابن المبارك التّاجر الواسطيّ المقرئ تاج الدين ويقال نجم الدين، تحقيق: د. خالد المشهداني، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، الطبعة: الأولى، 1425 هـ – 2004 م: 1/ 61.

[47] – الحجة في القراءات السبع، ص: 164.

[48] – ينظر، إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ: 2/166.

[49] – التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه: 2/ 696.

[50] – معاني القراءات للأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب – جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1412 هـ – 1991م: 1/ 189–190.

[51] - الكتاب: 4/ 434.

[52] - السابق: 1/ 174.

[53] - سر صناعة الإعراب: 1/77.